عائشة

obeikandl.com

obeikandl.com

ولدت عائشة لأبى بكر الصديق من زوجته «أم رومان» واسمها زينب أو دعد مختلف فيه ، كما اختلفوا فى نسبها واتفقوا على أنها من كنانة

وكانت قبل بناء الصديق بها زوجا لصاحبه فى الجاهلية عبد الله بن الحارث بن سخبرة وولدت له ابنه الطفيل ، ثم مات فخلفه عليها أبو بكر ليحفظ بيت صاحبه وحليفه

ومن المتفق عليه أنها كانت امرأة ذكية ، أسلمت وهاجرت ولقيت عنتا شديدا فى سبيل دينها وزوجها ، ويروى عن النبى عليه السلام أنه قال : « من سره أن ينظر الى امرأة من الحور العين فلينظر الى أم رومان »

وقد اختلفوا فى سنة وفاتها ، من قائل : انها توفيت فى حياة النبى عليه السلام الى قائل انها عاشت الى أيام عثمان رضى الله عنه ، والارجح فى رواية البخارى أنها عاشت الى أيام عثمان

ولا يعرف على التحقيق فى أى سنة ولدت السيدة عائشة رضى الله عنها . ولكن أقرب الاقوال الى الصدق وأحراها بالقبول أنها ولدت فى السنة الحادية عشرة أو الثانية عشرة

قبل الهجرة ، فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها أو قاربتها يوم بنى بها الرسول عليه السلام

وجملة ما يفهم من وصفها على التحقيق أنها كانت بيضاء، فكان عليه السلام يلقبها بالحميراء ، وكانت أقرب الى الطول لأنها كانت تعيب القصر كما مر فى كلامها عن السيدة صفية، وكانت فى صباها نحيلة أو أقرب الى النحول حتى كان الذين يحملون هودجها خاليا يحسبونها فيه . قالت فى حديث لها مشهور : « ... وأقبل الى الرهط الذين كانوا يرحلون لى ـ أى يحملون الرحل على البعير ـ فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه ، وكانت النساء اذ ذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشهن اللحم . انما يأكلن العلقة من الطعام . فلم يستكثر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه اذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن »

ثم مالت بعد سنوات الى شىء من السمنة كما جاء فى كلامها فى حديث آخر : « ... خرجت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم . فقال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا ! فتقدموا . ثم قال: تعالى حتى أسابقك . فسابقته فسبقته فسكت . حتى اذا حملت اللحم وكنا فى سفرة أخرى قال صلى الله عليه وسلم للناس : تقدموا ! فتقدموا . ثم قال : تعالى حتى أسابقك

فسابقته فسبقنى فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول: هذه بتلك »

وعلمنا من بعض أحاديثها أنها وعكت مرة فتمزق شعرها. فمن ثم وصيتها على مايظهر بالشعر حيث تقول : « اذا كان لأحدكم شعر فليكرمه »

وعلمنا من رواة وقعة الجمل أنها كانت جهورية الصوت، تخطب العسكر من هودجها فى ساحة الحرب فيسمع خطابها

وعلمنا من جملة أوصافها وأخبارها أنها كانت حية الطبع موفورة النشاط كدأب العصبيين من النساء والرجال، وكان أبوها رضى الله عنه من أصحاب هذا المزاج ولا مراء

والظاهر أنها ورثت عنه كثيرا من خلقه وخلقه على السواء. فقد كان الصديق جميلا حتى جاء فى بعض الروايات أنه لقب بالعتيق لجماله ، وكان نحيلا دقيق التكوين كما هو مشهور ، وكانت فيه حدة طبع مع حدة ذكاء ، وكان كريما سريعا الى نجدة المعوزين والضعفاء ، وكان صادق المقال لم يؤخذ عليه كذب قط فى الجاهلية ولا فى الاسلام ، وكان ماضى اللسان قديرا على افحام من يجترىء عليه ، وتشبهه السيدة عائشة فى هذه الخلائق شبها كان يوحى الى النبى عليه السلام كلما سمعها تجيب من يساجلها أن يقول : انها

ابنة أبى بكر ! انها ابنة أبى بكر !

وقد راضت حدتها زمنا كما كان أبوها يروض حدته طوال حياته ، ولكنها لم تبلغ من ذلك مابلغه أبوها لمكان الرجل من القدرة والحاجة الى سياسة الدنيا ، ومكان الفتاة من الضعف ومن الحظوة التى تغنيها عن الصرامة فى مغالبة النفس ومراس الخطوب فى كفاح الحياة

والمعهود فى أخلاق الناس أن الحدة تلازمها سرعة الغضب كما تلازمها سرعة الصفح والنسيان فى معظم الاحيان

وليس فى أخبار السيدة عائشة ما يناقض هذه المشاهدة التى تعم النساء كما تعم الرجال ، فليس مما ينقضها أنها رضى الله عنها بقيت على موجدة من مسألة الافك طوال حياتها فلم تنس قط مقالة أحد من القائلين أو الساعين فيها . اذ ليس أهول على نفس الفتاة خاصة ولا أوجع لضميرها من مطعن يهدم سمعتها ويعصف بهناءتها ويفقدها الرجل الذى تحبه والمكانة التى تبوأتها ، وأهول مايكون ذلك على البريئة العزيزة التى يهولها الامر على قدر ظلمها فيه وعلى قدر نكبتها بما تفقده من العزة والسمعة . فلا يقاس على موجدة السيدة عائشة فى مسألة الافك سائر خلائقها ودوافع ضميرها . فليس فى غير هذه المسألة ما ينم على شىء يتجاوز الحدة العارضة الى الضغينة الباقية

حدث مسروق الهمدانى قال : «دخلت على عائشة وعندها حسان وهو يرثى بنتا له ويقول :

رزان حصـــان ماتزن بريبـــة

وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت عائشة : لكن أنت لست كـذلك . فقلت لهـا : أيدخل عليك هذا وقدقال عز وجل (والذى تول كبره منهم له عذاب عظيم) فقالت : أما تراه فى عذاب عظيم قد ذهب بصره »

وهذا لأن حسان بن ثابت كان ممن نسب اليه شعر فى مسألة الافك لايرضى السيدة عائشة

على أنها قبلت عذره كما جاء فى رواية أخرى ونهت عن شتمه ، وذلك فيما رواه يوسف بن ماهـك عن أمه حيث تقول : « كنت أطوف مع عائشـة بالبيت فذكرت حسـان فسببته فقالت : بئس ما قلت أتسبينه وهو الذى يقول :

فان أبى ووالده وعرضى لعرض محمـــد منكم وقاء

فقلت : أليس ممن لعن الله فى الدنيا والآخرة بما قال فيك ؟ قالت : لم يقل شيئا ولكنه الذى يقول :

حصـــان رزان ما تزن بريبـــة

وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فان كان ما قد جاء عنى قلته

فلا رفعت سـوطى الى أناملى

وقال هشام بن عروة عن أبيه : « كنت قاعدا عند عائشة فمر بجنازة حسان بن ثابت فنلت منه ، فقالت : مهلا ! فذكرتها كلامه فقالت :

فكيف بقوله :

فان أبى ووالده وعرضى لعرض محمد منكم وقاء

ولا شك أن الذى ذكرته السيدة عائشة لحسان لاينسى، وأن الذى صفحت عنه بعد ذلك كثير،وأن حمد الصفح هنا أولى من ملاحظة التذكير والتبكيت

▭

أما كرم السيدة عائشة فهى فيه الى النجدة أقرب منها الى السخاء ، وهى فيه على آسال من أبيها العظيم رضى الله عنه ، تنقذ من الاسر وتغيث من البلاء وتعطى من هو فى حاجة الى العون العاجل ما تيسر لها العطاء ، وكانت فى كرمها على حال سواء فى أيام النبى عليه السلام حين لا مال لديها الا القليل الذى هى أحوج اليه ، أو فى أيام الفتوح التى تيسر لها فيها من المال ما لم يكن قبل بميسور

كان لعتبة بن أبى اللهب جارية حبشية اسمها بريرة زوجها على غيررضاها عبدا من عبيد المغيرة فكرهته وأعرضت عنه ، وهى أهل لمن هو أصلح وآدب منه. فرحمتها السيدة عائشة فاشترتها وأعتقتها ، وخاطبت فيها النبى عليه

السلام فقال لها : ملكت نفسك فاختارى !

وكان زوجها يتعلق بهـا ويتبعها حيث سـارت وهى معرضة عنه ، فتعجب النبى بين أصـحابه يوما من فرط حبه لها وزهدها فيه ، وقال لها: « اتقى الله فانه زوجك وأبو ولدك ! قالت : أتأمرنى ؟ قال : لا . انما أنا شافع . فقالت: اذن لا حاجة بى اليه »

وما زالت بعد ذلك فى خدمه السيدة عائشة تخلص لها وتذكر لها عطفها عليها ولا تنسى لها جميلها

وقد أعانها على هذا الخلق السمح أنهـا رزقت القـدوة القريبة بسيد المواسين للضعفاء ومعلم الجابرين لكسر القلوب، فما من شأو بلغته فى هـذا المعراج الرفيـع الا ارتفع بها رسول الله الى أعلى منه وأجمل . كانت عنـدها فتاة يتيمة اسمها الفارعة بنت أسعد فزوجتها لنبيط بن جابر الانصارى وسارت معها فى زفافها الى بيت زوجها . فلما عادت سألها عليه السلام : ما كان معكم لهو فانه يعجب الانصارى ؟ هلا بعثتم جارية تضرب بالدف وتغنى ؟ فسألتـه : ماذا تقول يارسول الله ! قال : تقول : أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم . ولولا الذهب الاحمر ما حلت بواديكم ، ولولا الحنطة السمراء ما سمنت عذاريكم »

وحدثت مولاتها أم ذرة ـ وهى من الثقات ـ أن ابن الزبير

بعث الى السيدة عائشة بغرارتين فيهما مال يبلغ مائةألف درهم ، وكانت صـــائمة فدعت بطبق فجعلت تقسم فى الناس . ثم أمسست فقالت : ياجارية هاتى فطرى . قالت أم ذرة : أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحما تفطرين عليه ؟ فقالت : لاتعنفينى ! لو كنتأذكرتنىلفعلت

وقالابن سعد عن عروة بنالزبير : رأيت عائشة تصدق بسبعين ألفا ، وانها لترقع جانبا درعها

وأيسر ما يستفاد من هذه الروايات على اختلاف مكان رواتها من الثقة أنها رضى الله عنها كانت مشهورة بالكرم والاحسان الى مستحقيه

وقد كانت بنت أبيها فى أكثر من خصله واحدة منهذه الخصال النادرة بين الرجال والنساء ، ولكنها كانت أشبه ماتكون به فى خصلة الصدق التى بها اشـــتهر ومن أجلها نعت بالصديق وغلب هذا النعت عليه حتى أوشك أنينسى الناس اسمه الذى دعاه به أبواه . وقد امتحن صدقها فى مآزق عسيرة البلاء للنفوس فتمخضت عنمعدن كريموعرق سليم ودلت على أصالة هذا الميراث النفيس من أبيها العظيم ففى الغاشية التى أطبقت على العـــالم الاســـلامى من جراء الخلاف على الخلافة تطايرت الاحاديث الموضـــوعة من هنـــا وهناك وتعمد أناس أن يصوغوا من عندهم حديثا لكلحزب

ينصره ويرضيه ويكبت خصمه ويخزيه . وافتن الوضاع في محاكاة الاحاديث النبوية ذلك الافتنان الذى شقى به المحققون للروايات بعد ذلك بسنين ، وكانت السيدة عائشة تشترك فى خصومات المتخاصمين على الخلافة باختيارها أو تساق الى المشاركة فيها على كره منها ، وكانت هى أول من يسمع له اذا روت حديثا يدمغ خصومها ويعزز أنصارها ، ولكنها لم تنقل قط فى كل ما ثبتت نسبته اليها حديثا واحدا تمسه الشبهات من قريب أو بعيد ولا تؤيده الاسانيد الاخرى ، ولم تحرف كلمة واحدة الى غير موقعها طواعية لاغراء تلك النوازع النفسيه التى تطيش بالألسنة وتضالل العقول ، وهو امتحان ليس أعسر منه امتحان فى هذا الباب . ولهذا كانوا يروون عنها الاحاديث فيقولون : حدثتنا الصديقة بنت الصديق

ومن الصفات التى شابهت فيها أباها الذكاء المتوقد والبديهة الواعية ولم تقصر فيها عن شأوه

بل لا نحسبها قصرت عن شأو واحد من معاصريها بين الرجال والنساء على السواء فى سرعة الفهم وقدرة التحصيل والاحاطة بكل ما يقع فى متناول ذهنها

قال أبو الزناد : ما رأيت أحدا أروى لشعر من عروة بن الزبير . فقيل له : ما أرواك ! قال : وما روايتى فى رواية عائشة ! ماكان ينزل بها شىء الا أنشدت فيه شعرا

وقد كان عروة بن الزبير أشد الناس حبا لخالته السيدة عائشة واعظاما لها وتوقيرا لسيرتها ، ولكن الذى روى عنها من الشواهد الشعرية فى أخبارها التى نقلت الينا يدل على صدق ماوصفها به من غزارة الحفظ وحسن الاستشهاد

دخل عليها النبى عليه السلام وهى تتمثل بالبيتين التاليين :

ارفع ضعيفك لايحر بك ضعفه
يوما فتدركه العواقب قد نما

يجزيك أو يثنى عليك وان من
أثنى عليك بما فعلت فقد جزى

فقال عليه السلام : لقد أتانى جبريل برسالة من ربى: « ايما رجل صنع الى اخيه صنيعة ، فلم يجد له جزاء الا الثناء عليه والدعاء له فقد كافأه »

وكانت تحفظ من شعر عروة بن الزبير نفسه وتسوق الشاهد منه فى موقعه ، كما قالت وهى ترى النبى عليه السلام ينتدى عرقا فى يوم قائظ وقد جلس يصلح نعله : لو رآك عروة لكنت المعنى بقوله :

فلو سمعوا فى مصر أوصاف خده
لما بذلوا فى سوم يوسف من نقد

لواحى زليخا لو رأين جبينه
لآثرن بالقطع القلوب على الايدى

ورأت أباها يجود بنفسه فقالت :

لعمـــرى ما يغنى الثـراء عن الفتى
اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

وعادت تقول :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهـه
ثمال اليتامى عصمـــة للأرامل

ومما يروى أنهـا أنشدته فى تلك السـاعة وهى ولهى لفراق أبيها :

وكل ذى غيبـــة يؤوب وغائب المـــوت لايؤوب

ويؤخذ من بعض مانقل عنها أنهاكانتتسمع شعر زهير وتعجب به ، فقالت لاحدى بناته فيما روى الهيثم بنعدى:

« ان الحلل التى كساها أبوك هرما لم يبلها الدهر »

على أن الفهم والحفظ ملكتان معروفتان للسيدة عائشة كثرت أو قلت الشواهد الشعـرية التى وصـلت الينا من أخبارها

فحسبها أنها قد روت للنبى عليه السلام أكثر من ألفى حديث فى مختلف المسائل التى تدخلفيها الاحكامالشرعية والعظات الخلقية والآداب النفسية والاصولالتى يرجعاليها فى الدين والعبادة

بل حسبها أن يثبت لها عشر هـذا العدد من الاحاديث النبوية ليثبت لهـا أنهـا كانت تفهم وتعى وتحسن الحفظ

فيما تنقله بحروفه كما تحسن التعبير فيما تحكيه بكلامها. وانها تحيط فى فهمهـا وحفظهـا بكل ما أحاطت به تلك الاحاديث فى المعارض والمناسبات

ومع هذا يروى الثقات انها كانت تحفظ وتفقه وتفسر ولا يقتصر علمها على وعى الكلمات والعبارات .. وقال أبو موسى الأشعرى : ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشه الا وجدنا عندها علما فيـه ، وقال عطاء بن أبى رباح : كانت أفقـه الناس وأعلم الناس وأحسن الناس رأيا فى العامة . وقال مسروق الهمـدانى : رأيت مشيخة أصـحاب رسول الله الأكابر يسألونهـا عن الفرائض ، وقال عروة بن الزبير : ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة

ومن الاحاديث التى ترفع الى النبى أنه قال : خذوا شطر دينكم عن هذى الحميراء . وهو حـديث لم يثبت بالسند الصحيح ، ولكن الحق الذى لا مراء فيه أن المسلمين قد عرفوا الكثير من أمر دينهم من أحاديث عائشة عن زوجها المحبوب عليه السلام

ولا ريب أنهـا كانت تقتـدى بأبيهـا فى حفظ الاخبار والأنساب كما كانت تقبس من ميراث أخلاقه وطباعه وملكاته. ويستفاد من بعض المنقول عنها أنها كانت تواقة الى معرفة كل ما يعرف من تواريخ الامم غير قانعة بأخبار الأمة العربية،

ولا بالاخبار التى تعنيها خاصة كأخبار النبى والصحابة والعشيرة الاسلامية ، ومنها خبر النجاشى حين هاجر المسلمون الى بلاده فأوفد اليه المشركون جماعة منهم يحملون اليه الغوالى والنفائس ليبطش بأولئك المهاجرين أو يردهم الى قومهم ، فقال : « ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة منه ، وما أطاع الناس فى فأطيعهم فيه »

فخفى على السامعين معنى كلامه هذا حتى بلغ السيدة عائشة ففسرته بما انتهى الى علمها ، هو أن هذا النجاشى كان من الأمراء المغصوبين فأقصاه الملك الغاصب وباعه بيع الرقيق ، ثم أعيد الى ملكه فاقتضى الرجل الذى اشتراه حقه وأبى هذا النجاشى الا أن يعطوه الدراهم من أموالهم ليجزيهم بصنيعهم ، فذلك اذ يقول : ما أخذ الله منى رشوة حين رد على ملكى فآخذ الرشوة فيه

وهو تفسير لايعنينا هنا أن نستقصيه من الوجهة التاريخية ، ولكن الذى يعنينا منه شغف السيدة باستطلاع أحوال الامم كافة حيثما تسنى لها سبيل الاطلاع

▭

وغزارة الاطلاع بينة ـ الى جانب هذا ـ من لغة السيدة عائشة التى امتزجت بأسلوبها فى كل ما نقل عنها ولاسيما الخطب والوصف خاصة . فقد كانت لها مادة من اللغة

لاتتهيأ بغير محصول كبير من أنباء العربية التى تستقى من أعرق مصادرها

قالت فى خطبة بعدوقعة الجمل تذكر أباها : «...وأبى ثانى اثنين الله ثالثهما ، وأول من سمى صديقا ، مضى رسول الله صلى عليه وسلم وهو عنه راض ، وقد طوقه وهق (١) الامامة ثم اضطرب حبل الدين فأخذ بطرفيه وربق (٢) لكم أثناءه فوقذ (٣) النفاق وغاض نبع الردة وأطفأ ما حشت يهود ، وأنتم يومئذ جحظ العيون تنتظرون العدوة وتستمعون الصيحة فرأب الثأى (٤) وأرزم (٥) السقاء وامتاح من المهواة واجتهر دفن الرواء(٦) حتى أعطن الوارد وأورد الصادر ، وعل الناهل (٧) فقبضه الله واطئا على هام النفاق ، مذكيا نار الحرب للمشركين ، فانتظمت طاعتكم بحبله فولى أمركم رجلا مرعيا اذا ركن اليه ، بعيد ما بين اللابتين(٨) عركة (٩) للأذاة بجنبه صفوحا عن أذاة الجاهلين،

---

(١) حبل يجعل فى العنق
(٢) وبقه شده فى الربق وهو حبل فيه عرى
(٣) كسره
(٤) أى رقع الفتق واصلح الخلل
(٥) أى شده
(٦) امتاح من المهواة اى استقى من البئر العميقة واجتهر دفن الرواء اى اخرج خبايا الماء الغزير
(٧) النهل اول الشرب والعلل السقى بعد السقى
(٨) كناية عن سعة الصدر
(٩) من المعاركة اى الاختبار

يقظان الليل فى نصرة الاسلام »

ووصفت أباها فى خطبة أخرى فقالت : « رحمك الله يا أبت ! فلئن أقاموا الدنيا لقد أقمت الدين حين وهى شعبه، وتفاقم صدعه ، ورجفت جوانبه، انقبضت عما اليه أصغوا، وشمرت فيما عنه ونوا ، واستصغرت من دنياك ما أعظموا ، ورغبت بدينك عما أغفلوا ، طالوا عنان الامر واقتعدت مطى الحذر ، فلم تهتضم دينك ولم تنس غدك ، ففازعند المساهمة قدحك وخف مما استوزروا ظهرك »

ووقفت على قبره قائلة ـ وهو كلام يستغرب تنسيق فواصله وترجيع ضمائره ، ولكنه لايستبعد على عصره

« نضر الله وجهك ، وشكر لك صالح سعيك ، فلقد كنت للدنيا مذلا باعراضك عنها ، وللآخرة معزا باقبالك عليها، ولئن كان أجل الحوادث بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك وأعظم المصائب بعده فقدك ، ان كتاب الله ليعد بالعزاء عنك حسن العوض منك ، فأنا أتنجز من الله موعوده فيك بالصبر عليك ، وأستعيضه منك ، بالدعاء لك . فانا لله وانا اليه راجعون ، وعليك السلام ورحمة الله توديع غير قالية لحياتك ولا زارية على القضاء فيك »

وقد كان لها أسلوب فيما يرتجل يناسب موضوعه، كما كان لها فيما يجوز تحضيره أسلوب يناسب مايحتفل له بالتحضير . فلما حكت عن زواجها بالنبى قالت بأسلوب

مرسل سهل ولكنه مع ذلك جزل فصيح : « ... تزوجنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابنة ست سنين،فقدمنا المدينة فنزلنا فى بنى الحارث بن الخزرج فوعكت فتمزق شعرى فوفى جميمه (١) فأتتنى أمى أم رومان وانى لفى أرجوحة ومعى صواحب لى وصرخت بى فأتيتها لا أدرى ما تريد بى ! فأخذتنى بيدى حتى أوقفتنى على باب الدار وانى لأنهج حتى سكن بعض نفسى ، ثم أخذت شيئا من ماء فمسحت به وجهى ورأسى ، ثم أدخلتنى الدار فاذا نسوة من الانصار فى البيت ، فقلن على الخير والبركة ، وعلى خير طائر . فأسلمتنى اليهن يصلحن من شأنى فلم يرعنى الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحى فأسلمتنى اليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين ... »

▭

ومع هذه المادة اللغوية التى تنم على استقصاء مادة العربية من أعرق مصادرها لانستغرب ماتواترت به الروايات من علم السيدة عائشة بطب زمانها وما يصح فى زمانها أن يسمى بعلم الفلك والظواهر الجوية لالمامه بمسالك النجوم ومهاب الانواء وغير ذلك من معارف البادية والحاضرة فى عصر الدعوة الاسلامية

---

(١) الجمة مجتمع شعر الرأس

وهكذا ننظر الى عائشة لنفسها فلا نرى أنها تقصر عن عائشة فى المكان الذى خصتها به الآداب العربية ، ورفعتها اليـــه الآداب الاسلاميـــة والحظوة النبوية ؛ لأنه مكان قد استحقته لنشأتها فى قبيلتها ودخولها فىدينها،واستحقته كذلك بما تميزت به بين أترابها من جمـــال وفهـــم ومعرفة وبيان

obeikandl.com